# الفصل الثاني

## إثبات نبوة محمد ﷺ وعموم بعثته

obeikandl.com

obeikandl.com

## المبحث الأول

### إثبات النبوة ودلائلها

اصطفى الله عز وجل محمدا ﷺ ليكون الرسول الخاتم للبشرية كلها، وهذا الاصطفاء والاجتباء منحة من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده الذين علم الله عنهم أنهم أهل للاصطفاء. وقد كان محمد ﷺ من هذا الطراز الفريد من البشر عرف بالصادق الأمين قبل البعثة، وبعد البعثة اتصف بمكارم الأخلاق ذلك أن الله صنعه على عينه فاجتمع فيه الخير كله كمالا وفى الخلق تكاملا.

وللعلماء فى إثبات نبوته مسالك متعددة يستدلون من خلالها على أنه رسول الله لإقناع الخصوم أو من يجادلون فى إثبات نبوته، وسوف نختار مسلكين ندلل من خلالهما على نبوته ﷺ.

**المسلك الأول**: ما يتعلق بأخلاقه.

**المسلك الثانى**: ما يتعلق بالمعجزات التى أيده الله بها.

**ونبدأ بالمسلك الأول**: أخلاقه ﷺ، ودلالتها على نبوته.

يقول الله عز وجل عن محمد وخلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

كان ﷺ أحسن الناس خلقا، وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الفحش والأخلاق الدنيئة التى تدنس الرجال لقد اجتمع فيه من الصبر، والحلم،

والتواضع والجود والشجاعة ما تواتر عنه ﷺ حتى صار مضرب الأمثال فى مكارم الأخلاق وشهد له الأعداء بذلك والأصدقاء.

وهذه الأخلاق الفاضلة كانت صفاته عند أهل الكتاب فقد سئل عبد الله ابن عمرو بن العاص عن صفة النبى ﷺ فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب :٤٥] وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينًا عميا وآذانًا صما وقلوبًا غلفا» [(١)].

هذه الصفات الأخلاقية الرفيعة جعلت السابقين الأولين إلى الإسلام يصدقون به ﷺ دون الحاجة منه إلى تقديم معجزة لهم حتى يؤمنوا يقول شارح الطحاوية: «**فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم يقينا أنه ليس بشاعر ولا بكاهن**» [(٢)]. ولكن البعض بعد تلك المعرفة قد يعرض مع تيقنه من صدق محمد ﷺ وهذا ما كان من بعض كفار مكة مثل النضر بن الحارث حيث يقول لإخوانه من كفار مكة: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر [(٣)] ومع ذلك أعرض وكفر عنادًا واستكبارًا من الصدق وصلة الرحم على أن الله لن يخزيه لأنه إذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف

(١) رواه البخاري في البيوع - باب: كراهية الصخب في الأسواق رقم (٢١٢٥).
(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١١٠.
(٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٢٦.

بدعوى المدعى أنه رسول الله؟ كيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه الأدلة؟ فلما قال لها ﷺ بعد أن نزل عليه الوحى: **«لقد خشيت على نفسى»**. فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق فذكرت ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم [١]. هنا لم تطلب السيدة خديجة معجزة حسية ولم يقدم لها الرسول معجزة وإنما الاستدلال على نبوته وصدقه فيما يقول يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بشخصيته ﷺ.

وكان هذا هو السبب فى تصديق أبى بكر، وزيد بن حارثة، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وبلال بن رباح، وعامر بن فهيرة وغيرهم من الصحابة [٢]، والاستدلال بصفات النبى ﷺ وأخلاقه على صدق نبوته لم يقتصر على من هم فى داخل الجزيرة العربية وإنما تعدى ذلك إلى خارجها ولعل سؤال النجاشى ملك الحبشة يصلح دليلا على ما نثبته هنا فقد سأل النجاشى جعفر بن أبى طالب عن الرسول ﷺ **«فلما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه قال: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة** [٣] والذى خرج به النجاشى من الاستدلال على نبوته من واقع سيرته ودعوته هو ما يقوم به العقلاء و الحكماء الذين يرزقون البصيرة النافذة ويعلمون الرجال وما يفرقون به بين الصادق والكاذب.

---

(١) شرح الطحاوية ص ١١١/ ١١٢ .
(٢) الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية ص ٣٣ .
(٣) شرح الطحاوية ص ١١٢ .

obeikandl.com

وأرانى. مضطرا لذكر قصة هرقل ملك الروم واستدلاله من واقع صاحب الدعوة - أى محمد ﷺ والدعوة أى الإسلام الذى يدعو إليه ﷺ.

والمستجيبون للدعوة أى الصحابة الذين دخلوا الإسلام وكانوا مع النبى ﷺ وبعد أن سأل أسئلة محددة عن الرسول ونسبه وصدقه ووفائه ثم الدعوة وموضوعها والذى تأمر به وتنهى عنه.

ثم المدعوين وحالهم وصفاتهم ومدى تمسكهم بالدين الذى جاء به محمد ﷺ استنبط ما يحكم به العقل ويدل عليه دلالة قاطعة أن من يتصف بالصفات التى ذكرها أبو سفيان بن حرب لا يمكن أن يكون كاذبا قال هرقل لأبى سفيان: «**فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه**» (١).

وقصة هرقل تتمثل فى أن النبى ﷺ أرسل كتابا مع «**دحية الكلبى**» إلى «**هرقل**» عظيم الروم فلما وصل الكتاب قيصر قال: انظروا لنا رجلاً من قومه نسأل عنه وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: أنا لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره. فقال قيصر: ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن

(١) رواه البخاري بدء الوحي جـ ١ ص ٦ .

هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب.

قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبل؟ قال: لا.

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم.

قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا.

قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يشير إلى ما كان بين المشركين والنبى من صلح الحديبية).

قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم.

قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا.

قال: فبم يأمركم؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة [١].

إلى هنا هرقل يسأل أبا سفيان أسئلة محددة وأبو سفيان يجيب أيضًا بالصدق عن صفات النبى وأصحابه وفحوى دعوته أى الإسلام وهرقل

(١) صحيح البخاري جـ ١ باب: بدء الوحي ص ٦/ ٧/ ٨ .

يستمع من خلال الترجمان ولا يعقب ثم نراه بعد ذلك يعيد الأسئلة والأجوبة ويقوم بتحليل لمضمونها واللازم لمن يتصف بها.

يقول هرقل: إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه يكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك: هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبى، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به فسيملك

موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان: فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر [١].

هذا ما كان من أمر هرقل وهو فى خارج الجزيرة العربية هذه الدلالات على صدق النبى استنبطها هرقل من طبيعة دعوته ومكارم أخلاقه. ومع أنه لم يؤمن إلا أن ذلك راجع إلى حب السيادة والجاه وآثر ذلك على متابعة الرسول ﷺ والدخول فى دينه وقد صرح هرقل بأن الخوف منعه من ذلك لما أظهره قومه من غضب وصياح كما فى رواية البخارى [٢].

ومن عجيب الأمر أن علماء الكلام يذكرون الاستدلال بشخصيته ﷺ ومكارم أخلاقه فى مرتبة متأخرة من الأدلة على النبوة ويولون المعجزات الحسية اهتماما زائدا على الرغم من الاعتراضات التى توجه إلى دلالة المعجزات الحسية على صدق الرسول ﷺ. نقرأ نصا «للتفتازانى» فى معرض استدلاله بأخلاق النبى ﷺ وصفاته على نبوته يقول: **«وقد يستدل أرباب البصائر على نبوته بوجهين:**

**أحدهما**: ما تواتر من أحواله قبل النبوة: وحال الدعوة وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه وإقدامه حيث تحجم الأبطال ووثوقه بعصمة الله تعالى فى جميع الأحوال وثباته على حاله لدى الأهوال بحيث لم يجد أعداؤه مع شدة عداوتهم وحرصهم على الطعن فيه مطعنا، ولا إلى القدح

---

(١) رواه البخاري باب: بدء الوحي جـ ١ ومسلم في الجهاد والسير باب: كتاب ﷺ إلى هرقل.
(٢) البخاري باب: بدء الوحي جـ ١ ص٧/ ٨.

فيه سبيلا فإن العقل يجزم بامتناع اجتماع هذه الأمور فى غير الأنبياء.

**ثانيهما**: أنه ادعى ذلك الأمر العظيم بين أظهر قوم لا كتاب لهم ولا حكمة معهم وبين لهم الكتاب والحكمة وعلمهم الأحكام والشرائع وأتم مكارم الأخلاق وأكمل كثيرًا من الناس فى الفضائل العلمية والعملية ونور العالم بالإيمان والعمل الصالح، وأظهر الله دينه على الدين كله كما وعده ولا معنى للنبوة والرسالة سوى ذلك [١] ولعل عبارة التفتازانى تنبئنا عن قيمة هذا الدليل لديه ولدى إخوانه من المتكلمين حيث يقول بصيغة التضعيف التقليل «**وقد يستدل**» لأن معظم المتكلمين لا يتكلمون أساسًا على جانب الأخلاق وشخصية الرسول ﷺ كدليل على نبوته.

وقليل من المتكلمين [٢] يذكرون هذا الدليل على استحياء بعد أن يسوقوا المعجزة كدليل أوحد ومقدم على صدق الرسول ﷺ.

وكما يقرر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم فى نقده لمسلك المتكلمين لتأخيرهم دليل أخلاقه وأحواله على نبوته بعد المعجزة ودلالتها.

**يقول حفظه الله**: ولعمرى ما الذى جعل علم الكلام يهمل كل هذه الدلالات مع غناها من حيث هى دلالة عادية إلا وهمه أنه يجد فى المعجزة دلالة أقوى لأنها ترتفع إلى مستوى الدلالة القطعية؟

أحسب أن علم الكلام فى هذا هو أشبه بوالد أهمل أولاده الكثيرين على نجابتهم وحسنهم وفضلهم لأنه ظن لسبب ما أن ولدا آخر له هو

---

(١) شرح التفتازاني على العقائد النسفية ط ص ١٨٩ .

(٢) انظر: مطالع الأنظار للأصفهاني شرح مطالع الأنوار للبيضاوي ص ٤٢٤ وانظر: المواقف وشرحها جـ ٨ ص ٢٥٩/ ٢٦٠ وانظر: شرح السنوسية الكبرى ص ٣٣٨ تحقيق الدكتور/ عبد الفتاح بركة وانظر المنقذ من الضلال للغزالي ص ١٩٠/ ٢٠٥ .

أفضل منهم وأحسن وأنجب، وأن له قيمة تفوقهم أجمعين وأنه من شأنه أن يضفى على والده شرفا لا طريق بالآخرين إليه فانكشف بذلك شعاع أولاده ظلمًا دون أن يبزغ شمس المختار منهم [١].

هذا ما حدث بالفعل من المتكلمين خلا القليل منهم حين فضلوا الاستدلال بالمعجزات وبدءوا بها على حساب دلالة الأخلاق والأحوال التى لازمته ﷺ والتى بدلالتها آمنت خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار بل وامتدت إلى خارج الجزيرة العربية كما حدث فى شأن هرقل. بل وأكثر من ذلك كانت أخلاقه هى السبب فى إسلام كثير من الناس خلال فترة دعوته ﷺ.

**المسلك الثانى: المعجزات ودلالتها على صدق الرسول ﷺ:**

المعجزة الكبرى الخالدة الباقية للرسول ﷺ القرآن الكريم. يقول الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء :٨٨].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء :٨٢].

وقد تحدى الله العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل القرآن أو سورة واحدة منه يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة :٢٣].

وهذا التحدى هو أغرب تحد فى التاريخ لأن من زعم من العرب قديما

---

(١) الأسس المنهجية ص ٣٤٦.

أن القرآن ليس من عند الله فليأت بمثله أو بسورة منه ومن زعم فى أى وقت من الأوقات ذلك إلى أن تقوم الساعة فعليه أن يأتى بمثله أو بسورة منه فإن التحدى قائم على وجه الدهر يقول القاضى عبد الجبار: «**فإن قيل ما وجه الإعجاز فى القرآن؟ قلنا إنه تحدى العرب بمعارضته مع أنهم كانوا فى الغاية فى الفصاحة والمشار إليهم فى الطلاقة والذلاقة وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يعارضوه وعدلوا عنه لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله**»(١).

**ويفصل العلماء الوجوه التى من أجلها كان القرآن معجزا وهذه الوجوه منها:**

**أولاً**: نظمه على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح وبلاغة كل بليغ وكيف عجز العرب، وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن أن يأتوا بسورة منه فى مدة ثلاث وعشرين سنة واختاروا الخروج بالسيف مع ما فيه من إراقة الدماء واستحلال النساء واسترقاق الأولاد على معارضة سورة واحدة وفى هذا من العجز الظاهر والنكول الواضح عن الإتيان بسورة منه(٢).

**ثانيًا**: ما انطوى عليه من الإخبار بالغيوب واشتماله على قصص الأولين مع القطع بأنه ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت :٤٨].

---

(١) الأصول الخمسة ص ٥٨٦ .

(٢) انظر: المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى الفراء ص ١٥٨/ ١٥٩ وانظر: الإنصاف للباقلاني ص ٦٢/ ٦٣ وانظر: نهاية الأقدام للشهرستاني ص ٤٤٩ .

ثم إخباره عن غيوب يعجز الخلق عن معرفتها مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥]، وكان الأمر كما أخبر الله على لسانه ﷺ.

وقوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح :٢٧] .

ومثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح :١٦] .

وقد دعاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم بعد وفاة النبى ﷺ (١).

ومثل قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر :٤٥] . وقد ولى المشركون الدبر وهزم جمعهم بعد أن اجتمعوا لقتال النبى ﷺ فى بدر، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك يوم أن كان المسلمون مستضعفين فى مكة.

وبالجملة فلو نقب العاقل على ما فيه من الإخبار بقصص الماضين وأحوال الأولين على نحو ما وردت به الكتب السابقة؛ وما فيه من الأخبار عما تحقق بعدما أخبر به من الغائبات فإن ذلك يكون كافيا له فى معرفة إعجاز القرآن وصادًّا له عن المكابرة والبهتان (٢).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨٥ .

(٢) انظر: بلوغ المرام للآمدي ص ٣٤٥ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحقيق حسن محمود عبد اللطيف .

**ثالثًا**: إذا كان القدامى قد استدلوا بوجوه على إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والنظم وأيضًا من ناحية الإخبار عن الغيوب التى وقعت كما أخبر الله عز وجل فى القرآن فإن المحدثين من الباحثين يضيفون إلى تلك الوجوه وجوها أخرى لإعجاز القرآن تتمثل فى الكشوف العلمية الحديثة التى أخبر عن بعض منها القرآن الكريم ونحن لئلا نحمل القرآن الكريم ما لا يتحمله ينبغى أن نقرر أن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن الأسرار الواقعة موضوع البحث فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية فى ذلك الموضوع؛ ولو أن دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليًّا أو جزئيًّا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن بل معناه أن المفسر أخطأ فى محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن [١].

وسوف نأخذ نموذجًا واحدًا من إعجاز القرآن فيما يتعلق بخلق الجنين.

من المعلوم أن محمدًا ﷺ كان أميًّا، ولم تكن له أدنى معرفة بالعلوم والمعارف قبل الرسالة وبعد أن نزل عليه القرآن الكريم شاء الله لهذا الكتاب أن يكون المعجزة الخالدة الباقية إلى أن تقوم الساعة وقد احتوى القرآن الكريم على إشارات دقيقة عن مراحل نمو الجنين فى بطن أمه، والتساؤل الآن ما الذى أعلم محمدًا بتلك الحقائق، الذى أنفق الإنسان مئات السنين من التجارب والبحوث ليصل إليها؟ الجواب: هو الله -

(١) الإسلام يتحدى ص ١٩٣ .

ومن الممكن أن نأخذ من هذه الحقائق دلائل على وحدانية الله ونبوة محمد ﷺ، وإعجاز القرآن. كل هذه الدلائل تؤخذ من هذه الحقائق القرآنية التى تطابقت معها المعارف الحديثة ولابد أن نشير إلى أن صحيح المنقول - لا يتعارض مع صريح المعقول كما أشار إلى ذلك العلماء، وفى مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألف كتابه القيم «**درء تعارض العقل مع النقل**» حول هذا وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣].

ولنعرض الآيات ثم نرى استنباط الباحثين المتخصصين لها.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون :١٢-١٥].

**يقول البرفسور جونسون**: القرآن أول مصدر يذكر أطوار الجنين ويصف المظهر الخارجى والعمليات الداخلية المتلاحقة فى الرحم كما أن وصف الرحم بأنه قرار مكين وصف دقيق، وقد كشف العلم الكثير من التفاصيل لهذا الوصف الجامع المعبر فالرحم للنطفة؛ ولمراحل الجنين اللاحقة سكن لمدة تسعة أشهر، وبالرغم من طبيعة الجسم التى تطرد أى جسم خارجى فإن الرحم يأوى الجنين ويغذيه، وللرحم عضلات رابطة تحمى الجنين داخله، ويستجيب الرحم لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلاءم مع نموه فهو قرار له وقد جمع هذا اللفظ الذى وصف القرآن الكريم به الرحم كل الحقائق التى اكتشفها العلم لبيان مناسبة الرحم

لاستقرار الجنين فهو لفظ معبر جامع [١].

وهكذا قدم القرآن الكريم والسنة النبوية منذ أكثر من ألف عام مصطلحات تصف مراحل الجنين وهى منطبقة تمامًا مع قواعد تحديد المصطلحات فى ضوء معارفنا الحديثة وفى كل مرحلة قدم لها وصفا دقيقًا يشمل المظهر الخارجى وأهم أحداث الخلق فى تلك المرحلة [٢].

ما أثبته العلماء المتخصصون من تطابق المعارف الحديثة مع القرآن الكريم وحقائقه يمكن أن يستدل به لدى الملحدين، والماديين - على النبوة والرسالة لمحمد ﷺ لأنا نقول على سبيل المثال كما يقرر البروفسور «**جونسون**»: إن التطورات والأحداث التى تكلم عنها القرآن خلال مرحلة النطفة يستحيل كشفها بدون المجاهر الضخمة إذن فمن الذى أعلم محمدًا بها - إنه الله [٣]، إن أخبار القرآن الكريم عن كثير من التعبيرات التى كشف العلم من معانيها ما لم يخطر فى بال أحد من أهل العصر الذى نزل فيه يعد من المعجزات ومن معجزاته أيضًا أنه لم يثبت على توالى القرون بعد نزوله شىء قطعى ينفى شيئًا قطعيًا أخبر به - وهذا يدل على أنه من عند الله [٤]. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء :٨٢].

**المعجزات الحسية:**

مع دلالة صدق المعجزة الكبرى الخالدة وهى القرآن الكريم على

(١) انظر: مجلة الإعجاز العلمي ص ٢٦/ ٢٧/ ٢٨ العدد الأول الطبعة الثانية شوال ١٤١٦هـ.
(٢) انظر: السابق.
(٣) نفسه ص ٢٩ وانظر: في إعجاز القرآن من الناحية العلمية الإسلام يتحدى وحيد الدين خان، وانظر: الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - موريس بوكاى وانظر: توحيد الخالق - للزندانى.
(٤) الوحي المحمدي ص ٣٥٥/ ٣٥٦.

صدقه ﷺ فإن هناك معجزات حسية طلب بعضها المشركون كانشقاق القمر ووقع بعضها للنبى ﷺ، دون أن يطلبها منه أحد، كحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى بين يديه ﷺ.

يقول الإمام الجوينى فى لمع الأدلة: «**ولرسول الله ﷺ آيات ومعجزات سوى القرآن كانفلاق القمر، وتسبيح الحصى، وإنطاق العجماء، ونبع الماء من بين الأصابع ونحوها**» (١). وقد عدد الجرجانى فى شرحه على المواقف نحوا من ستة أنواع من هذه المعجزات الحسية الدالة على نبوته ﷺ مثل مشى الشجرة إلى النبى ﷺ ومنها حديث الظبية للنبى ﷺ وسؤالها له أن يستشفع لها عند الأعرابى لترضع خشفيها، ومنها كلام الناقة للنبى ﷺ وغير ذلك كثير... ثم يعقب على هذه المعجزات فيقول: «**كل واحدة من هذه المعجزات المغايرة للقرآن وإن لم تتواتر فالقدر المشترك بينها وهو ثبوت المعجزة متواترًا بلا شبهة وهو كاف لنا فى إثبات النبوة**» (٢). وذلك لأنها ليست فى وسع أحد من المخلوقات (٣).

ونحن مع صاحب المواقف وشارحها. فى أن هذه المعجزات كافية فى وقتها للدلالة على صدق النبى ﷺ كدلالة معجزة إبراهيم وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام فى الدلالة على نبوتهم... ولكن يبقى الاستدلال بأخلاقه وصفاته. مع المعجزة الخالدة وهى القرآن لهما قصب السبق فى الدلالة على صدق النبى ﷺ إن فى زمانه أو بعد عصره وإلى أن تقوم الساعة.

---

(١) لمع الأدلة ص ١١٢ تحقيق الدكتورة فوقية حسين.

(٢) انظر: المواقف لعضد الدين الإيجي وشرحها للسيد الشريف الجرجاني ص ٢٥٦/ ٢٥٧/ ٢٥٨.

(٣) بلوغ المرام للآمدي ٣٤٥.

obeikandl.com

## المبحث الثانى

## عموم بعثة محمد ﷺ وعالمية رسالته

**المطلب الأول: نصوص الوحيين المثبتة لعموم البعثة:**

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يرسل محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل ليبلغ رسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعًا والله أعلم حيث يجعل رسالته.

الآيات والأحاديث الدالة على عموم بعثته ﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

هذه الآية تدل على أن محمدًا ﷺ. مبعوث إلى جميع الخلق وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المراد جنس الناس لا كل فرد وإلا فمعلوم أن غير المكلف لا يدخل تحت الناس. وقد علم بالتواتر من دينه أنه كان مبعوثًا إلى كل العالمين [١]، وهى تدل ضمنا أنه مبعوث إلى الثقلين وسائر الرسل إلى أقوامهم فقط [٢] وإلى هذا المعنى ذهب القاسمى فى محاسن التأويل [٣].

---

(١) انظر البرهان للزركشي جـ ٢ ص ٢٢٦ والتفسير الكبير للرازي ص ١٦ .
(٢) تفسير البيضاوي ص ٢٢٥ .
(٣) محاسن التأويل للقاسمي جـ ٥ ص ٢٧٩ - الناشر دار الفكر ببيروت .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ، يقول البيضاوى: أى لأنذركم يا أهل مكة ومن بلغه إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم المجودين وقت نزوله ومن بعدهم - فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد ﷺ والإنذار ليس مختصًّا بمن شافههم بالخطاب بل ينذرهم به وينذر من بلغهم القرآن [١]، وهذه الآيات وغيرها من السور المكية التى تتحدث عن عموم رسالته ﷺ تجابه المزورين من أهل الكتاب وغيرهم الذين يزعمون أن محمدًا ﷺ لم يكن يدور فى خلده وهو بمكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهل هذه القرية من ذيول الحرب التى شنوها قديما على هذا الدين وأهله وما زالوا ماضين فيها [٢].

ويقول عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ :٢٨] ، أى: رسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وهى ظاهرة فى الاستدلال على بعثة محمد ﷺ [٣] للناس جميعًا.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان :١] .

ونحن نذكر هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر وإلا فالآيات كثيرة جدًّا سواء منها المكى أو المدنى.

---

(١) تفسير البيضاوي والجواب الصحيح جـ ١ ص ٣٨٣ .
(٢) ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٣٧٩ - ١٣٨٠ .
(٣) الكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٢٩٠ وروح المعاني جـ ٢١/ ٢٢ ص ١٤٢/ ١٤٣ .

وقد ورد أحاديث صحيحة بروايات متعددة تدل على عموم بعثة النبى ﷺ مختصًا بذلك دون غيره من الأنبياء والمرسلين جميعا منها:

ما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من قبلى؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**» (١)، وما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون**» (٢)، يقول ابن حجر: وطريق الجمع بين رواية البخارى ورواية مسلم أن يقال لعله ﷺ اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقى (٣)، وما رواه الإمام أحمد ومسلم بسنديهما أن رسول الله ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار**» (٤)، ووجه الدلالة أنه لو لم يكن مرسلا إلى جميع الخلق ومنهم اليهود، والنصارى ما حكم على من لم يؤمن منهم برسالته بأنه من أصحاب النار ولذلك دعاهم ﷺ وأقام الحجة عليهم وعلى ملوكهم وأمرائهم بالرسائل التى أرسلها إليهم إن فى داخل

---

(١) فتح الباري جـ ١ ص ٤٣٦ كتاب التيمم .

(٢) رواه الإمام مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة شرح النووي ج ٣ ص - دار الفكر بيروت.

(٣) فتح الباري جـ ١ ص ٤٣٦ .

(٤) رواه الإمام مسلم جـ ١ رقم ١٥٣ .

الجزيرة العربية أو خارجها.

**المطلب الثانى:**

**بشارة الكتب السابقة بمحمد ﷺ ودلالتها على عموم بعثته:**

أخبرنا القرآن الكريم بأن محمدًا ﷺ. كان معروفا عند أهل الكتاب خاصة أحبارهم ورهبانهم. وأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون. وأيضًا فريق منهم علم الحق فصدع به وآمن وصدق نبوة محمد ﷺ.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف :١٥٧].

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام :٢٠].

ويقول سبحانه على لسان عيسى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الممتحنة :٦].

هذه الآيات جميعها تقرر أن أهل الكتاب عندهم علم بمحمد ﷺ لأن أنبياءهم بشروا به، وعلى الرغم من التحريف الذى لحق بالتوراة والإنجيل إلا أن علماء الإسلام نشطوا فى استنباط بعض الأدلة من كتب اليهود والنصارى تدل على بشارة الأنبياء به وهذه الأدلة يفهم منها عموم بعثته ﷺ للناس جميعا وتدل على كونه خاتم الأنبياء.

**ورد فى أشعياء**: «لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا» (١).

**هذا النص يشير إلى النبى ﷺ وعموم بعثته وختم نبوته من وجوه عدة هى:**

**أولاً**: قوله «**وتكون الرياسة على كتفه**» يقصد بها خاتم النبوة الذى على كتف النبى محمد ﷺ وقد جاء فى النسخ القديمة «**والشامة على كتفه**» والنبى هو الذى رياسته على عاتقيه وبين منكبيه إشارة إلى ختم النبوة وإلى السيف الذى كان يعلقه ﷺ على عاتقه.

**ثانيًا**: قوله «**أبا أبديا رئيس السلام**» وفى النسخ القديمة «**أركون السلام**» والأركون هو العظيم محمد ﷺ وهو صاحب الشريعة الأبدية التى لم تنسخ، وهو الذى أقر السلام فى العالم ونشره.

وقد وردت الفقرة السابقة من هذه البشارة فى طبعة لندن ١٨٢٢ م هكذا ليكثر سلطانه وسلامه ليس له فناء على كرسى داود وعلى مملكته يجلس ليقيمها ويعضدها بالإنصاف والعدل منذ الآن وإلى الأبد».

وهذه الصفة إشارة إلى ختم النبوة لأن الذى سلطانه إلى الأبد لا ينسخ شرعه لعدم الحاجة إلى شرع آخر غيره، ومعنى جلوسه على كرسى داود وراثته بنى إسرائيل ونبوتهم وملكهم ورياستهم ولم يحصل هذا لغير

(١) سفر شعياء الإصحاح التاسع فقرة ٦/ ٧ .

محمد ﷺ بل هو صريح الدلالة عليه.

**ثالثًا**: إن هذه الأوجه جميعا التى اشتمل عليها النص السابق. صريحة فى محمد ﷺ فهو الذى كان بين كتفيه خاتم النبوة وهو الذى كان مؤيدًا منصورًا على الأعداء وهو الذى نشر السلام فى الأرض أما المسيح فلم يسلط على أحد بل تسلط عليه اليهود والرومان ثم إن الأناجيل تنسب للمسيح قوله «**لا تظنون أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا**» (١).

فهو على حسب هذا القول لم يأت لنشر السلام الذى نشره محمد ﷺ (٢). ومن ثم تكون هذه النصوص خاصة بمحمد ﷺ. دالة على نبوته وعموم رسالته ﷺ.

* * *

(١) إنجيل «متى» ١٠/ ٣٤.

(٢) انظر: بالتفصيل بشرية المسيح ونبوة محمد ﷺ د/ محمد خليل ملكاوي الطبعة الأولى ١٩٩٣م مطابع الفرزدق الرياض ص٢٦١/ ٢٦٢/ ٢٦٣.

## المبحث الثالث

### حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة

فى الوقت الذى بعث الله فيه محمدًا ﷺ كان العالم فى أمس الحاجة إلى الصوت الأخير المتمثل فى الإسلام، فقد كانت المجتمعات كلها تتخبط خبط عشواء، وكل شىء فى العالم ينبئ عن الاضطراب ولسان حاله يقول هل من منقذ؟ هل من مخلص؟ ولم يكن شىء سوى الإسلام لينقذ العالم من الاضطراب والبشرية من الهلاك المدمر، فالإسلام الرسالة الخاتمة هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان، ولم يكن فى منطقة دون منطقة [١]. كانت البشرية تتطلب إنقاذًا سريعا يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل. وكان هذا المنقذ هو الرسول ﷺ الذى ظهر فى وسط شتات من البشر. اعتقدوا فى أديان حرفت وبدلت فانقلبت على أعقابها وذهبت ببهاء الدين النازل من عند الله، بعد أن حرفه الأتباع وبدلوه وقد أجاد العلامة أبو الحسن الندوى فى وصف الحالة التى عليها العالم وقت بعثة النبى مظهرًا مدى حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة يقول: «**بعث محمد ﷺ فوجد مجتمعًا هو الصورة المصغرة للعالم، كل شىء فيه فى غير محله أصبح الذئب راعيًا، والخصم الجائر قاضيًا، وأصبح الصالح فيه محرومًا شقيا بينما المجرم سعيدًا حظيًا. رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله أرقاء، ورأى الأحبار والرهبان من**

(١) مطلع النور ص ٢٦ للأستاذ العقاد منشورات دار الآداب بيروت ضمن مجموعة العبقريات.

**اليهود والنصارى أصبحوا أربابا من دون الله، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. لذا كان الجميع فى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن، ولكن خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق أن يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم»** (١).

هذا الوصف الدقيق يعطى صورة مجملة عما كان عليه العالم الذى علم الله أنه فى أمس الحاجة إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله العزيز الحميد، والله أعلم حيث يجعل رسالته... فكان محمد الرسول وكان الدين هو الإسلام بوسطيته وشموله وعدله ورحمته.

وسوف نعرض وصفًا موجزًا لبعض الأمم وقت الرسالة، حتى نتبين مدى الحاجة والضرورة إلى الرسالة الخاتمة للعالم كله.

**المطلب الأول: حال الأمم وقت البعثة:**

**أ - أمة العرب:**

ليس هناك أفضل من وصف العرب قبل الإسلام، إلا أنهم كانوا فى ضلال مبين يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة :٢] . وذلك الضلال يتمثل فى عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله واعتبارهم إياهم شفعاء، وابتغاء الرزق عندهم، ومن وأد البنات

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ بتصرف .

وشرب للخمر ولعب للميسر حتى قال قائلهم:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العازلات بشربة كميت متى تعل بالاء تزبد

هذا فضلا عن العصبية الجاهلية التى لا تتوقف عند قتال القبائل بعضها لبعض بل قال أحدهم:

وأحيانًا على بكر أخينا إذا لم نجد سوى بكر أخانا.

وكثير من أمراض العالم من حولهم حلت بهم إن من الناحية الاجتماعية أو السياسية والاقتصادية، خاصة فيما يتعلق بالربا الذى كان شائعًا عند العرب خاصة المجاورين منهم لليهود، ومعلوم ما يفعله الربا بالجميع، وما يقوم به المرابى من ظلم.

كل هذه الأمور كانت تجعل من الرسالة الخاتمة لهذه الأمة ضرورة حتمية ليخرجوا من الظلمات إلى النور.

**ب - أمة اليهود:**

اليهود غلاظ القلوب ديدنهم الفساد فى الأرض يعيشون فى ظل عقيدة لديهم يعاملون الناس على أساس منها، تتمثل هذه العقيدة فى كونهم شعب الله المختار وهم فضلا عن ذلك أبناء الله وأحباؤه ومجتمعهم مجتمع مغلق لا يدخلون فيه إلا اليهودى لأن الدين والجنسية عندهم شىء واحد [١].

ومعلوم أن شريعتهم التى حرفوها وبدلوها تفرق بين ما هو منهم، وما هو من غيرهم فنراهم يحرمون الربا فيما بينهم [٢] بينما يستحلونه مع

---

(١) نحو مجتمع إسلامي - سيد قطب ص ١٣٢ دار الشروق.
(٢) سفر التثنية الإصحاح ١٥ الفقرة ٧/ ٩ وسفر اللاويين الإصحاح الخامس والعشرين الفقرة ٣٢/ ٣٩ وانظر: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٣٦.

غيرهم، وغير ذلك كثير من خروجهم عن منهج الله عز وجل. ثم هم فى الوقت نفسه كانوا ينتظرون النبى الخاتم وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وذلك قبل مبعثه ﷺ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على اليهود، والكافرين.

كل هذه الخصال الذميمة التى اجتمعت فيهم لا تؤهلهم كافة ولا يؤهلهم دينهم الذى حرفوه وبدلوه لأن يكون دينًا عالميًا يقدم الحلول للبشرية ومشكلاتها المعقدة فكان لابد من الرسالة الخاتمة.

**جـ - أمة النصارى:**

كانت النصرانية فى البداية تدعو إلى التوحيد، ثم استحالت بعد المسيح عليه السلام إلى ديانة وثنية. وأدى ذلك إلى اختلاف فرقها اختلافًا أودى بالانقسام الحاصل بين أتباعها إلى اليوم ثم إن النصرانية ليس لها شريعة تنظم المجتمع النصرانى فضلا عن سلطة القساوسة والرهبان الذين يحلون ويحرمون ويأكلون أموال الناس بالباطل ولذلك لا يصلح الدين النصرانى لقيادة البشرية إلى قيام الساعة، فكان لابد من الإسلام بعالميته وشموله وصلاحيته لكل زمان ومكان.

**المطلب الثانى: بعض خصائص الرسالة الخاتمة:**

بعد أن استعرضنا نماذج من الأمم الموجودة قبل الإسلام نخرج بنتيجة لازمة، تتمثل فى أن الكون كله كان فى انتظار رسول. هذا الرسول الخاتم استحقت رسالته الخلود ودعوته العالمية للخصائص التى تميزها عن الأديان السابقة اليهودية والنصرانية والديانات الوضعية كالفارسية والهندية، هذه الخصائص تتمثل فى الآتى:

**أولا: التوحيد الخالص:**

جاء محمد ﷺ فدعا إلى التوحيد الخالص، الذى نادى به الأنبياء من قبله يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥] .

ويقول عز وجل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

هذا التوحيد الخالص الذى ينفى الوسائط بين الله عز وجل وبين عباده فلا أصنام، ولا أوثان، ولا أحبار، ولا رهبان يحللون ويحرمون، ويعطون ويمنعون بل الكل يتوجه إلى الله فى عبادته والكل يسأل الله بلا وسيط ولا شفيع، والكل أمام الله سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

جاء محمد ﷺ بالإسلام الذى نادى بالأصول العقدية فى دين الله الواحد واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها وأتمه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣ ][(١)].

إنه الدين الكامل التام الذى لا يجزئ الإنسان بين إلهين اثنين إله الخير والنور، وإله الظلم والشر كما فى المجوسية إنه الدين الذى يفسر للإنسان كل القضايا الكبرى التى تشغل باله فى كل زمان ومكان مثل قضية الألوهية قضية الكون، وقضية الإنسان، وقضية النبوة وقضية المصير،

(١) انظر: نحو مجتمع إسلامي ص ١١٠ - سيد قطب دار الشروق .

وإن نظرة على كل مشكلة من تلك المشكلات فى الأديان السابقة على الإسلام ترينا الفرق الشاسع والبون البعيد بين نظرة الإسلام وكماله وتمامه وبين نظرة هذه الأديان.

إنه الدين الكامل الذى يخاطب كل ملكات الإنسان ويأخذ منها دليلا وشاهدا على صدقه إذا تخلص هذا الإنسان من أهوائه وميوله وتجرد للحق وطلبه إنه الإسلام الذى يخاطب الفطرة الإنسانية ويخاطب العقل والوجدان والشعور [١].

إنه الدين الذى يطلب من الجميع أن ينضووا تحت لوائه ويأخذوه بشموله فلا يؤمنون ببعضه ويكفرون بالبعض الآخر.

إنه الإسلام الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران :١٩].

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران :٨٥].

**ثانيا: الشريعة العادلة:**

استحق الإسلام دون غيره أن يكون الرسالة الخاتمة والشريعة الخالدة العادلة فليست أحكامها لأمة دون أمة، ولا مبنية على أعراف قوم مخصوصين أو عوائد زمن محدود بل هى مبنية على الفطرة التى لا تتغير بالزمان أو المكان، ومن ثم لزم أن تكون تلك الشريعة أحكامها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان [٢].

---

(١) الخصائص العامه للإسلام ص ١١٣/ ١١٤/ ١١٥.

(٢) مبادئ الإسلام للمودودي ص ١٦١.

ثم إن الشريعة التى جاء بها الإسلام جاءت وسطًا مستمدة تعاليمها من الله العليم الخبير، فهى وسط فى التحليل والتحريم بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم بسبب الظلم الحاصل من أتباعها يقول تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء :١٦٠-١٦١] .

وجاءت وسطًا أيضًا بين المسيحية كما آلت إليه والتى أسرفت فى الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص عليها فى التوراة. مع أن الإنجيل صرح بأن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة بل جاء ليكمله ومع هذا أعلن «بولس» ومن بعده أتباعه بأن كل شىء طاهر للطاهرين [(١)].

على العكس من ذلك جاءت الشريعة بمنع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيبًا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بلا إسراف ولا كبرياء يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :٣١-٣٢] .

والقرآن ينهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء :١٧١] .

والمسلمون أولى بالنهى من أهل الكتاب؛ لأن الإسلام دين الرحمة واليسر وهو مصداق لقول النبى ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة» [(٢)].

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٦ .

(٢) الوحي المحمدي - ص ٢٦٨/ ٢٦٩ محمد رشيد رضا - الطبعة التاسعة المكتب الإسلامي بيروت .

وقد لخص الإمام محمد عبده رحمه الله العدالة التى لم يشهد التاريخ مثالا لها فى قوله: كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها، والمبادرة إلى رغيبتها؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت الطبقات بعضها على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدًا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه، عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو؟ ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما [١].

هذا جزء يسير من عدالة الشريعة بين المسلم والمسلم، وبينه وبين غير المسلم ولنعرض هذا النموذج الفذ فى ظل الحكم الإسلامى لنبرهن به على عدالة الشريعة التى يحتكم إليها المسلمون من جهة ومن وجهة أخرى نرد على العلمانيين وأشباههم الذين يصفون الحكم الإسلامى مما هو منه براء.

(١) رسالة التوحيد ص ١٨٨ - الناشر دار المعارف.

**يقول السير توماس أرنولد**: لما حشد الإمبراطور هرقل جيشًا ضخمًا لصد قوات المسلمين كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم فلما علم بذلك أبو عبيدة أمر بأن يرد على أهل الذمة ما أخذ منهم من جزية وكتب إلى النصارى قائلا: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذ منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم فما كان من النصارى إلا أن دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: «**ردكم الله علينا ونصركم عليهم**» أى: على الروم، فلو كان هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شىء بقى لنا [١].

وهذا غيض من فيض، ملئت به كتب التاريخ وتناقلها المحب والمبغض، ونظرا لعدالة هذه الشريعة استحق الإسلام أن يكون الدين الخاتم وأن يكون للعالمين كلهم حيث لا تصلح شريعة اليهود، ولا تعاليم النصارى ولله الحجة البالغة على الناس جميعًا.

**ثالثًا: الشمولية والوسطية:**

إن الإسلام كدين خاتم، لابد أن يكون شاملا فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته فى خاصة نفسه وفى علاقته بربه وفى صلة الإنسان بأسرته وبمجتمعه الذى يعيش فيه وعلاقات الدول بعضها ببعض. الإسلام ينظم كل هذه العلاقات، وذلك ببيان الأصول والمبادئ العامة

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩ .

التى تقوم عليها والقواعد والقوانين والنظم التى تحكمها على اختلاف أنواعها [١].

ثم إن الإسلام من ناحية أخرى متسق مع حقائق العلم، ولا اختلاف مع منطق الفكر وأهم ما يميز الإسلام هو الوسطية بين مطالب البدن، ومطالب الروح، بين مصالح الدنيا وسعادة الآخرة وهذا معنى جعل أمة الإسلام أمة وسطًا.

يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة :١٤٣].

فأمة الإسلام أمة وسط بين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس ورهبان النصارى، وبين الذين يغلب عليهم التعالى والمنافع المادية كاليهود [٢].

بهذا الشمول وتلك الوسطية امتاز الإسلام عن غيره من الأديان بأن يكون الخاتم وأن يكون للعالم كله وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء :١٠٧].

* * *

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ٥٧/ ٥٨.
(٢) الوحي المحمدي ٢٦٧.